جمالية الصورة في الخطاب الشعري المقاوم عند محمود درويش

The aesthetic of the image in the poetic discourse of resistance of Mahmoud Darwish

***زكرياء لخضاري**

جامعة عبد الحميد بن باديس،مستغانم، (الجزائر)، zakaria.lakhdari.etu@univ-mosta.dz

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية في الجزائر من العهد التركي إلى نهاية القرن العشرين، جامعة مستغانم

أ.د عبد القادر حاج علي

جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، (الجزائر)،Adr306@yahoo.fr

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية في الجزائر من العهد التركي إلى نهاية القرن العشرين، جامعة مستغانم

تاريخ الاستلام: 26 /11/ 2022 تاريخ القبول: 23/07/ 2023 تاريخ النشر: 2023/12/17

الملخص : يتحدد الخطاب الشعري المقاوم بمستوى عمقه الثقافي ورؤيته الإنسانية التي تمنحه حق الديمومة والخلود، فهو خطاب ينتقل بالحدث من مستواه المحلي إلى مستواه الإنساني العابر، وهو في الأساس مبدأ يقوم على تعشق الحرية ومقاومة جميع مظاهر الظلم والاستلاب، ومثالا على ذلك فإن الشاعر محمود درويش قد انتقل بالقضية الفلسطينية من كونها قضية من قضايا المقاومة، إلى كونها قضية من قضايا الإنسان ككل، ورمزا من رموز الأمل في التحرر من كل ما يكبل الإنسان ويقف عائقا في طريق حريته. تناولنا الصورة باعتبارها ملمحا بارزا من ملامح شعرية القصيدة المعاصرة؛ لنخلص إلى أن الشاعر في خطابه المقاوم يستنهض عناصر هذه الصور، التي تتشكل من الرموز الطبيعية، والتاريخية، والتراثية، لتكون أدوات فاعلة يجيشها في مقاومته، فالأرض بعناصرها وهي مصدر للأصالة والجمال هي كذلك مكمن لابتعاث روح المقاومة الإنسانية.

الكلمات المفتاحية : الخطاب الشعري المقاوم – المقاومة – الصورة ودلالاتها.

Abstract: The poetic discourse of resistance is determined by the level of its cultural depth and its human vision that gives it the right to permanence and immortality. The Palestinian cause has moved from being one of the resistance issues to being one of the human issues as a whole and a symbol of hope for liberation from everything that shackles man and stands in the way of his freedom. We dealt with the image in this discourse on the grounds that it is the most prominent feature of the poetic features of the contemporary poem, as we talked about the types of some of the images because of their aesthetics, to conclude that the poet in his resistance discourse mobilizes the elements of these images that are formed from natural, historical and heritage symbols to be effective tools that mobilize them. In his resistance, the earth with its elements and it is a source of authenticity and beauty is also a source of resurrection of the spirit of human resistance.

Keywords: poetic discourse of resistance - image

***المؤلف المرسل**: زكرياء لخضاري ، **الإيميل**: zakaria.lakhdari.etu@univ-mosta.dz

مقدمة: إنَّ كل كائن حي هو كائن مقاوم بوجه من الوجوه، والأدب بوصفه نشاطا إنسانيا فإنه يسعى إلى تقوية عناصر الضعف ومقاومة مظاهر الظلم والاستلاب، ولا نقصد بكونه مقاوما أنه يتناول قضايا المقاومة من أجل استنهاض الهمم وبث الحماس في الجماهير، وإنما هو مقاوم في حد ذاته؛ إذ ينتقل معه الحدث من حدث زماني ومكاني إلى حدث إنساني وفني عابر للزمان والمكان، لتتوفر فيه بذلك أسباب الديمومة والخلود، والخطاب الشعري المقاوم يتحدد بمدى عمقه الثقافي والإنساني ورؤيته التي يطرحها، وليصير معه الشعر بدلا من كونه وسيلة من وسائل المقاومة ذات الطابع التاريخي إلى كونه مقاوما في ذاته كما أشرنا، إن هذا الخطاب قد ارتقى في أساليبه التعبيرية والفنية من المباشراتية في الطرح إلى الانفتاح والغنى بالرؤى الفكرية

والإنسانية، فلم يعد يقصر نفسه على مستوى الخطاب الثوري فحسب بل امتد لحدود البناء الحضاري وتشييد الذات، وأصبح تعبيرا عن إرادة الحياة في سبيل تحقيق حضور مستقل وفاعل، ذلك أنه لم يعد حالة آنية وإنما مبدأ أصيلا قائما على تعشق الحرية وإثبات الذات، وقوام الخطاب الشعري المقاوم والأدب عموما يكمن في مدى نجاحه في توظيف الصور التي تخدم غاياته بوصف الصورة ملمحا من أبرز ملامح شعرية القصيدة المعاصرة التي تغني رؤى النص وتثري جمالياته، وعليه فإننا نطرح الإشكال الآتي:

ما هو أثر الخطاب الشعري المقاوم ودوره في تشكيل الصورة وإعطائها جمالياتها؟

لتتحدد عناصر البحث فيما يلي:

- مفهوم الخطاب الشعري المقاوم وتميزه عن خطاب المقاومة.
- توظيف الصور بأنواعها وتفرد قيمها الدلالية في سياق توظيفها ضمن ما يسمى بالخطاب الشعري المقاوم.

مفهوم الخطاب الشعري المقاوم :

إن المقاومة هي فعل الكينونة، والإنسان في تاريخه كان مقاوما بدء من مقاومته لظروف الطبيعة، إلى مقاومته للهيمنة والاستبداد الذي يقع له من أبناء جنسه، وقد تعددت فيما بعد أشكال المقاومة لتشمل المقاومة السياسية والاجتماعية والنفسية والاقتصادية، فالمقاومة غدت بمثابة رد فعل على الهيمنة والاستبداد، وأصبحت دفاع الإنسان عن وجوده الإنساني، ونشدانه للحياة التي تكفل له الحرية والكرامة.

والأدب بوصفه نشاطا إنسانيا فإنه يروم إلى تقوية عناصر الضعف ومقاومة عوامل الضعف والانحلال وما يمكن له أن يستلب حرية الإنسان، وإذا توسعنا في مفهوم المقاومة فإنها تشمل"مقاومة صور القبح والظلم والاضطهاد والتهميش على الأرض العربية، سواء ما كان منها تحت الاحتلال أو غير ذلك، على هذا النحو يمكن أن تندرج كثير من التجارب الأدبية العربية تحت مصطلح الأدب المقاوم[1]".

جاء في " معجم المعاني" في معنى المقاومة :

" قاومُ يُقاومُ مقاومةً وقِواما فهو مُقاوِم والمفعول مقاوَم.

قاوم أعداء بلاده ناضل ضدهم ، عارضهم بالقوة (...)

قاومَ الجسمُ المرضَ : قام برد فعل ليزيل تأثير المرض أو يخفف من ضرره [2]"

يشير اسم الفاعل (مُقاوِم) إلى المواجهة، والبسالة، والمنع، ورد الفعل إزاء شيء ما بالتصدي، وتشير كلها إلى فاعلية المواجهة.

ومما يجدر بنا التنويه إليه هو ضرورة التفريق بين شعر المقاومة الذي يكون أساسه ثوريا، وبين كون الشعر مقاوما في حد ذاته، ذلك أن "الأدب في ذاته نشاط إنساني يقاوم عوامل الضعف التي قد تنتاب النفس البشرية في لحظات الانكسار، ويُرى أنه ليس هناك عمل أدبي جاد في تاريخ الإنسان يمكن أن يخلو من سمة المقاومة، لأنه لابد أن يحتوي من وجه ما؛ على فكرة الصراع، ولعل هذا ما يعطي أدب المقاومة وجهه الإنساني العام الذي يتعدى الأطر القومية والقوالب الاجتماعية، مما يجعل الكتاب ينفعلون ويكتبون عن قضايا شعوب لا ينتمون إليها[3]"، إذن فنحن لا نقصد الأدب الذي يتناول المقاومة بمعالجته لموضوعاتها بشكل مباشر من أجل بث الوعي والاستنهاض الحماسي للجماهير إذ "ليست هذه وظيفة الأدب، بل إن وظيفة

الأدب الحقيقية هي في تحويل الحدث من حدث لحظوي زمانيا ومكانيا؛ أي يخص شعبا ما؛ إلى حدث إنساني عام عابر للجغرافيا وللتاريخ فيكون تأثيره عميقا في ذاكرة الشعب خاصة، وفي التراث الإنساني عامة، إن ما يجعل هذا النص المقاوم أدبا شعرا أو نثرا هو عمقه الثقافي الإنساني وتجاوزه اللغوي، والرؤية الواسعة التي يقدمها، شأنه في ذلك شأن النص الشعري أو الأدبي عامة[4]".

وبالنظر في ذلك فإن الخطاب الشعري المقاوِم عند محمود درويش قد ارتقى في أساليبه التعبيرية والفنية من المباشراتية في الطرح والتقريرية؛ إلى الانفتاح والغنى بالرؤى الفكرية والإنسانية في مستواها الأعمق، وتجاوز الشعارات الخطابية ليغوص في بواطن الوجود الإنساني باهتمامه بكلية التجربة الإنسانية، فلم يعد يقصر نفسه على الخطاب الثوري فحسب، بل امتد لحدود البناء الحضاري، وتشييد الذات، فقد أصبح الخطاب الشعري المقاوِمُ عند شاعرنا تعبيرا عن إرادة الحياة والطموح في تحقيق حضور حر ومستقل وفاعل، ذلك أن المقاومة عنده ليست حالة وقتية، وإنما هي مبدأ حياتي أصيل، قائم على تعشق الحرية، وإثبات الحضور والفاعلية، والتعامل مع الآخر بندية وإخاء[5].

وقد صارت مهمة هذا الخطاب "البحث عن مجالات أخرى تحول الحلم بالاستقرار في المكان، إلى تجربة وجودية كبرى تغذيها الهزائم والنكبات والكوارث والحروب التي أحاطت بالتجربة الفلسطينية، وهكذا كانت المقاومة الفلسطينية – على سبيل الذكر – كما يقول فخري الصالح، الدافع المعنوي الذي دفع القصيدة الفلسطينية لاعتناق الرمز التموزي للأرض، وتحويل استعارة الأرض إلى حامل تعبيري لرموز الخصب والتجدد وانتصار الحياة (...) لقد انصهرت الذات المقاومة بتموز وأصبح الشعر احتفالا غامرا بالحياة الطالعة من الموت[6]"؛ مثلما انتقل الإبداع مع محمود درويش من محاولته للاستقرار في المكان إلى محاولته للاستقرار في اللغة، منفتحا بذلك ومستندا إلى كبرى التجارب الإنسانية؛ إذ نقل فلسطين من حيزها الجغرافي المحدود، إلى أفقها الإنساني والفني اللامتناهي فصارت بوصفها ليست مكانا ماديا فحسب؛ وإنما ذات مفهوم رمزي حركي وذات مفهوم سياسي بالإضافة إلى مفهومها النفسي والسيكولوجي[7].

إننا نقع في الخطاب الشعري المقاوم على خاصية المزج بين الخاص والعام، ويعد هذا في تجارب شعراء المقاومة نقلة نوعية لتجربة الحب، حملت من مضمونها الوجداني الضيق، إلى آفاق أكثر رحابة وأكثر خصبا وإنتاجا، فشعر الغزل الرفيع كما يقول "فلاديمير بروب " يتوحد في ارتباطاته بحركة تحرر الشعوب، وفي الجهد المبذول لصوغ السعادة الشاملة[8]. هذا المزج يفتح آفاقا رحبة أمام تجربة الإبداع فالخطاب الشعري المقاوم هو في أصله تجربة للحب تخصب الشعر ليكون مضمارا لحرية الشعوب وسندا في مقاومتها.

جمالية الصورة في الخطاب الشعري المقاوم عند محمود درويش :

إن قوام الأدب وارتكازه من الجانب الفني والتعبيري يقوم على حسن استخدامه وتوظيفه للصورة، وما يعنينا هنا هو البحث في أثر الخطاب الشعري المقاوم ودوره في تشكيل الصورة الفنية وإعطائها جمالياتها، باعتبارها أبرز ملمح من ملامح شعرية القصيدة المعاصرة إذ تعد الصورة "واحدة من أبرز الأدوات التي يستخدمها الشعراء في بناء قصائدهم، وتجسيد أحاسيسهم ومشاعرهم، والتعبير عن أفكارهم وتصوراتهم للإنسان والكون والحياة، وقد حفل الشعراء المحدثون بالصورة الفنية احتفاء كبيرا، واهتموا بطريقة تشكيلها وبنائها، وبطبيعة العلاقات القائمة بين عناصرها المختلفة؛ حتى غدت ملمحا بارزا في نصوصهم الشعرية، وعلامة فارقة تدل على تطور الشعر العربي وتقدمه ومواكبته لتغيرات العصر ومتطلباته واحتياجاته، وذلك نتيجة

لاختلاف طبيعة الخيال، ولاختلاف مفهوم الشعر بشكل عام عند شعرائنا المحدثين[9]"، وقد غدا البعد الفني ممثلا بالصورة ونشأ عنه ما يسمى بالبعد الجمالي الذي يمثل قيمة العمل المنجز، فالصورة هي الجزء الأكثر فنية في بنية النص الشعري الحديث، وهي عنصر رئيس في البنية الداخلية للنص الشعري؛ بما يكمن في عناصرها من دهشة، ومفارقة، وانزياح، وخيال فسيح، يفتح الآفاق لقراءات متعددة ومفتوحة[10] .

وقد أبدع الشاعر محمود درويش في صوره فأصبحت أداة فاعلة لنقل تجربته الشعرية المميزة لما لها من دور كبير في تفجير طاقات الإبداع عنده، فهي الشكل المخصوص الذي خصصناه بدراستنا باعتبارها" الوسيلة الفاعلة التي توصلنا إلى إدراك تجربة الشاعر؛ عن طريق السمو باللغة وتفتيق طاقات الكلمة، فالصورة تنمو في داخل الشاعر مع النص الشعري ذاته، وليست شكلا منفصلا، هذا فضلا عن أن التعبير بواسطة الصورة يجعل الشعر أكثر تجاوزا للظواهر ومواجهة للحقيقة الباطنية، واللغة الشعرية المؤثرة هي تلك التي تستعين- متجاوزة البنية التركيبية الأفقية- علاقات تنشئها بين المفردات، بوسائل بيانية مختلفة تؤدي إلى ما يسمى بالصورة الفنية؛ التي تستمد طاقاتها الإيحائية وحقيقتها من تساميها وطرافة تركيبها[11]".

تتعدد أنواع الصورة لتشمل (الصورة الحسية، والصورة الذهنية، والصورة الرمزية وغيرها ... وهذا التنوع له آثاره وأبعاده الفنية والجمالية؛ التي نرى أثرها في الخطاب الشعري المقاوم عند محمود درويش والتي سنتعرض لها بالتحليل فيما يلي:

- **أولا : الصورة الحسية :**

إن للصورة الحسية أهميتها في الإحاطة بالمعنى التجريدي وتمثيله، من خلال تفعيل الآليات التي تتذوق بها الحواس فالشاعر يعبر عن عوالمه الشعورية المجردة من خلال الأشياء الحسية؛ ذلك أن اللغة المباشرة تبقى عاجزة عن الإفصاح عن كل ما يختلج في نفس الشاعر؛ فيقوم الشاعر باستثمار المدركات الحسية في سبيل أن يضفي عليها صفات شعورية، فتتجسد الطبيعة كائنا يفصح عما في نفس الشاعر، و"كثيرا ما يستعين الشعراء بتوظيفها في قصائدهم؛ إذ أن حواس الإنسان هي حلقة الوصل بينه وبين محيطه وهي نافذته إلى العالم، وهي خير من يمثل إحساسه، بل من خلالها ينتقل تأثير كل ما يحيط به إلى دواخله، فيؤثر بقلبه وعقله وكل جوارحه، ثم يتحول هذا التأثير إلى صور تجوب الخيال، يستعين المبدع بها ليوضح من خلالها أفكاره، ولا ترد الصورة الحسية في النص الشعري لمجرد التوضيح والإبانة فحسب؛ بل إنها غاية فنية أكثر مما هي وسيلة توضيحية؛ ذلك أنها تتخطى العالم الحسي الخارجي، وتحاول الغوص في وديان عميقة من أجل التنبؤ بالأبعاد الداخلية والنفسية للأشياء[12]".

كما في هذا المقطع من قصيدة محمود درويش المعنونة ب " سيجيء يوم آخر" من ديوان "لا تعتذر عما فعلت" والتي يمتزج فيها ما هو شعوري بما هو حسي :

"سوف يجيء يوم آخر، يوم نسائي
غنائي الإشارة، لازوردي التحية
والعبارة، كل شيء أنثوي خارج
الماضي. يسيل الماء من ضرع الحجارة.
لا غبار، ولا جفاف، ولا خسارة.
والحمام ينام بعد الظهر في دبابة

مهجورة إن لم يجد عشا صغيرا
في سرير العاشقين" [13]

الشاعر في هذا المقطع من القصيدة عبر عن عوالمه الشعورية؛ باستثماره لمدركات العالم وأشيائه الحسية، فمما نستوحيه من عناصر هذه الصورة الحسية (نسائي .. لازوردي .. أنثوي .. لا غبار .. لا جفاف .. الحمام .. سرير العاشقين) هو إيحاؤها الذي يشي بالرقة والعذوبة والجمال ذلك أن اليوم الذي يتخلص فيه الفلسطينيون من أعدائهم وأعداء الحياة، ويتخلص العالم فيه من هيمنة الظلام، هو بلا شك يوم جميل ومميز يفيض رقة وعذوبة، فالشاعر ههنا يقاوم ببثه الأمل في نفوس الناس أجمع، ولا يقصر خطابه على شعب فلسطين فحسب، فكل مكروب لا بد وأن يجيء عليه يوم رائع كالذي صوره الشاعر ينعم فيه بالسلام، ولا تجد الدبابة فيه وهي رمز للحرب والعدوان من وظيفة سوى أن تكون مكانا ليبيت فيه الحمام إن لم يجد بيتا في سرير العاشقين، هو يوم سيعم السلام فيه ويشيع في كل النفوس المعطوبة .

وفي قصيدته "نزهة الغرباء" من ديوان "لماذا تركت الحصان وحيدا " ندرك مدى تقنيات الشاعر وإمكانياته في توظيف المحسوسات وإعطائها أبعادا دلالية عميقة من خلال إضفاء الحياة عليها من جديد، يقول الشاعر:

" أعرف البيت من خصلة المريمية، أولى
النوافذ تجنح نحو الفراشات ... زرقاء ...
حمراء. أعرف خط السحاب وفي أي
بئر سينتظر القرويات في الصيف. أعرف
ماذا تقول الحمامة حين تبيض على فوهة
البندقية. أعرف من يفتح الباب للياسمينة
وهي تفتح أحلامنا لضيوف المساء" [14]

تمثلت الصورة الحسية من خلال ذكر الشاعر لمجموعة من المحسوسات:

النوافذ– الفراشات– الألوان(حمراء–زرقاء) –السحاب –البئر –الصيف –القرويات –الحمامة –فوهة البندقية –الياسمينة – المساء ...

في هذا المقطع تتوازى الصورة الحسية لعناصر الأرض مع الصورة الشعورية الداخلية للنفس ويتحدد الخطاب الشعري المقاوم بوصفه تفعيلا للمحسوسات من عناصر الطبيعة وإعادة توظيفها في سياق مفاده التأكيد على ارتباط الشاعر الشديد بأرضه فلسطين؛ فالبيت الذي تزينه المريمية هو أرض فلسطين الجميلة والتي عبثا يحاول المحتل اغتصابها، وصورة النوافذ التي تجنح نحو الفراشات هي صورة الفلسطيني الذي يجنح نحو الحرية العذبة في جو يعود فيه كل شيء إلى طبيعته وتعود القرويات فيه إلى البئر المملوء ماء وخيرا وبركة.

كذلك فإن الواقع الحالم الذي صوره لنا الشاعر، يعمه السلام بإعطائه لنا صورة عن حمامة السلام التي تبيض في فوهة بندقية الحرب والياسمينة التي تفتح الباب لضيوف المساء، تندرج هذه المحسوسات التي ذكرها الشاعر ضمن حقل الطبيعة، وتعطي لنا صورتها العامة شكلا من الجمال والانسياب والحب، فالشاعر متفائل يتصور المستقبل أو يحلم بالمستقبل جميلا،

ليكون خطابه مقاوما لقبح الاحتلال بذاكرة الجمال، وليستنهض عناصر الطبيعة ويجيشها جماليا ضد المحتلين الغاصبين، وليرفع رايات العدل والحرية والتسامح وانتصار السلام على رايات الحروب والقتل والدمار.

إن كلام الشاعر مشحون شحنا قويا؛ فهو يتألف من عناصر محسسوسة تحمل في تضاعيفها رموزا ودلالات، أي أنها توحي بأكثر مما في المعنى الظاهري، وأكثر من انعكاس الواقع الخارجي، ما يجعلها تؤلف في مجموعها كلاما منسجما[15]، هذا ما يجعل الشاعر محمود درويش يستثمر مدركات العالم الحسية ليغوص في كنه الأعماق النفسية الداخلية، ويعطي للأشياء أو المحسوسات : حركة، ولونا ،وملمسا ،وطعما ،وصوتا .. فهو بذلك يخرج ما لا تقع عليه الحواس، إلى ما تقع عليه من مشاهد وصور هي في الحقيقة مستمدة من صميم أرضه .

- **ثانيا : الصورة الذهنية :**

يستعمل الشاعر الصورة الذهنية ليعبر عن حالات تجريدية غامضة وليحاول بلوغها، وهذا النمط من الصور يتم من خلال التعبير والانتقال من الحسي إلى التجريدي، أو من تجريدي إلى تجريدي آخر، فالشاعر لا يطابق الواقع في عمله أو يهدف إلى ذلك، بل إنه يستعمله ليعبر عن حالات ملتبسة وغامضة، وهذه الحالات لا يستطاع بلوغها مباشرة، وتؤدي الاستعارات دورا مهما في هذا النمط من الصور في النص الشعري الحر، وتشتد حدة التجريد حينما يضاف المحسوس إلى المجرد[16]،كما نلمس في قصيدة محمود درويش "جدارية " التي نستشف من خلالها صراع الشاعر مع الحياة والموت والمعنى :

" وكُلُّ شيء أَبيضُ،
البحر المعَلَّقُ فوق سقف غمامةٍ
بيضاءَ. والَّلاشيء أَبيضُ في
سماء المطْلَق البيضاءِ. كُنْتُ، ولم
أَكُنْ. فأنا وحيدٌ في نواحي هذه
الأَبديَّة البيضاء. جئتُ قُبَيْل ميعادي
فلم يَظْهَرْ ملاكٌ واحد ليقول لي
ماذا فعلتَ، هناك، في الدنيا ؟
ولم أَسمع هُتَافَ الطيِّبينَ، ولا
أَنينَ الخاطئينَ، أَنا وحيدٌ في البياض،
أَنا وحيدُ "[17]

تشكلت الصورة الذهنية من خلال دمج الشاعر بين عديد من الصور الجزئية لتعطينا صورة لا نتعامل معها إلا من خلال التصور الذهني فالبحر معلق فوق سقف غمامة بيضاء، واللاشيء أبيض كذلك، وسماء المطلق بيضاء، وهو وحيد في البياض، وصورة البياض التي رسمها صورة ملتبسة وغامضة، وتحيلنا دلالتها إلى دلالة الفناء عند الصوفيين، حيث يرتفع الإنسان فوق جميع المتناقضات ويعلو عليها، يعلو فوق الشيء واللاشيء أيضا ليتصالح مع كل شيء، يعلو على الحرب كما يعلو على السلم، ولا وجود للملاك الذي يسأله ماذا فعل في الدنيا، إن الشاعر ينقل لنا صورة أنه أصبح متحررا ولا شيء يستعبده وقد

تخلص من القضايا التي كان تحت إسارها؛ ذلك أنه لا وجود لظالمين ومحتلين ولا وجود كذلك لمظلومين ومضطهدين، لا أنين يسمع ولا هتاف، بل هو وحيد في هذا البياض وحيد، ولا شيء يوجعه على باب القيامة كما يضيف.

يتجلى الخطاب الشعري المقاوم في ضوء هذا المنحى العدمي الذي نلمسه في هذه القصيدة، من خلال هذه الصورة الذهنية التي تصور لنا ارتفاعه على جميع المتناقضات، وجنوحه وتحليقه في عوالم من الحرية والسكون، وقد وصل الشاعر في خطابه إلى أقوى مظهر من مظاهر المقاومة وهو أنه قد تخلص حتى من مقاومته، إذ تغلب على كل شيء وعلا وارتفع فلا شيء يوجعه كما يؤكد:

" لاشيء يُوجِعُني على باب القيامةِ.
لا الزمانُ ولا العواطفُ . لا
أُحِسُّ بخفَّةِ الأشياء أَو ثِقَلِ
الهواجس" [18].

تحفل هذه الصورة بالحس الصوفي المتمثل كما ذكرنا في الفناء حيث أن الشاعر قد تحققت له حريته في مستواها الأعمق إلى أن صار فكرة :

" سأَصيرُ يوماً فكرةً . لا سَيْف يحملُها
إلى الأرضِ اليبابِ، ولا كتاب
كأنَّها مَطَرٌ على جَبَلٍ تَصَدَّعَ من
تَفَتُّح عُشْبَةٍ" [19]

لن يكون هناك سيف ينشر الإيديولوجيات بالغصب، ولا كتاب أيضا يمارس سلطته غصبا على الناس؛ بل كل ما هنالك فكرة طائرة محلقة؛ يتصدع منها الجبل العظيم كما يتصدع من عشبة ضعيفة تطلع للضوء والهواء مزيحة صخوره الصلبة وتربته المترسبة المضغوطة، سينتصر الشاعر بفكرة النور وإن كانت ضعيفة، ستنتصر فكرة المقاومة لتزيح ما تراكم في صدور الناس من هم ويأس، إن الصورة الذهنية هي خلاصة تجربة ذهنية يخلقها إحساس الشاعر، وقدرة خيالية تتحول بها من كونها ذهنية غير مجردة إلى رسمها صورة بارزة للعيان يتذوقها متلقوها[20] ، ما يجعلنا نصف الشاعر بأنه رسام يرسم بالكلمات، ومحمود درويش لا يقدم صورا استهلاكية من خلال قصائده؛ بل صورا تفتح الذهن أمام تعدد القراءات وتنوعها؛ حتى تصبح كل قراءة وكأنها كشف جديد .

- **ج/ الصورة الرمزية :**

إن الرمز دائم التجدد والاشتعال، يضفي على المعاني بريقا لا ينضب ويبثها في صور متوهجة متألقة ما كانت تتأتى لولاه، وهو يفيد الشاعر في الربط بين أحلام العقل الباطن ونشاط العقل الظاهر، والربط بين الماضي والحاضر، والتوحيد بين التجربة الذاتية والتجربة الجماعية، فضلا عن أن الصورة الرمزية ونفاذها بنجاح داخل النص الشعري، يفتح آفاق القصيدة لقبول ألوان عميقة من القوى المتصارعة، ويثري أشكالها التركيبية والبنائية [21]، وقد استطاع محمود درويش أن يوظف الرمز في صور شعرية بارعة، قد أثْرتْ ما يسمى بخطابه الشعري المقاوم؛ كما في قصيدة " سنونو التتار" التي جاء فيها:

" على قدر خيلي تكون السماء. حلمت

بما سوف يحدث بعد الظهيرة. كان التتار
يسيرون تحتي وتحت السماء، ولا يحلمون
بشيء وراء الخيام التي نصبوها. ولا يعرفون
مصائر ماعزنا في مهب الشتاء القريب.
على قدر خيلي يكون المساء. وكان التتار
يدسون أسماءهم في سقوف القرى كالسنونو،
وكانوا ينامون بين سنابلنا آمنين" [22]

يرمز التتار إلى الوحشية والهمجية والبطش وفي ذكرهم إشارة مبطنة للمحتل الصهيوني؛ فهم يتشاركون معه كثيرا من صفات الظلم والتخريب، غير أن الشاعر يعكس الصورة المعتادة فقد جعلهم لا يحلمون بشيء وراء الخيام التي نصبوها، أي لا يهدفون للتوسع. ويدسون أسماءهم في سقوف القرى كالسنونو وينامون آمنين فكأنهم جزء من وطنه وأرضه، تسللوا وصاروا بيننا وفي هذا إشارة إلى أنهم بدؤوا يستوطنون شيئا فشيئا، وبدؤوا يألفون حالهم ويعتادون المكان الجديد رويدا رويدا، حتى إنهم سيصدقون بأنهم قد صاروا جزء من الأرض، لكنهم:

" لا يحلمون بما سوف يحدث بعد الظهيرة، حين
تعود السماء، رويدا رويدا،
إلى أهلها في المساء" [23]

فهم جزء شاذ عن الأرض مهما فعلوا، فلا يمكن لهم أن يعرفوا طبيعة الأرض التي لا تخصهم؛ فكل شيء يعود إلى أهله؛ فالأرض لا تفتأ في الرجوع إلى أهلها مهما نام الغرباء بين سنابلها آمنين، إن الشاعر عبر صوره الرمزية متفائل لا ينفك عن التشبث بالأمل وبثه ليكون خطابه الشعري المقاوم هو خطاب الأمل المستمد من أحقيته في الأرض، وهذا ما تؤكده هذه الأبيات:

" أنا حلمي. كلما ضاقت الأرض وسعتها
بجناح سنونوة واتسعت. أنا حلمي ...
في الزحام امتلأت بمرآة نفسي وأسئلتي
عن كواكب تمشي على قدمَيْ من أحب
وفي عزلتي طرق للحجيج إلى أورشليم" [24]

تتشكل الصورة الرمزية من توظيف الشاعر لرموز الطبيعة (سنونوة – كواكب) فالسنونوة ذلك الطائر الوديع الحر الذي يرمز الشاعر به إلى سلميته وتأصل حقيقة الحرية فيه، وترمز الكواكب لاستغراق الشعراء في الحب والتأمل، كما ترمز أورشليم وهي رمز تراثي إلى فلسطين العراقة والحضارة، فمحمود درويش يفتح بشعره طرقا نحو هذا التاريخ وهذه الحضارة .

يوظف الشاعر محمود درويش جميع أنواع الرموز ويغذيها من تجربته ومن مجموع رؤاه، فتتعدد حتى يصير كل شيء من حوله رمزا : التراب – البرتقال – الزيتون – يافا – حيفا – السنونوة – الرياح – الدار – البئر – الأغنية – الحلم – المطر – الحمام – الحجر – القمر .. وغيرها الكثير. لتصير عنصرا فاعلا في خطابه الشعري المقاوم ضد محاولات الاستلاب، وقد

تكررت الرموز في نصوصه الشعرية حتى غدت مهيمنة وشكلت صورا رمزية قد ألبسها التكرار حلة جمالية خاصة؛ تتجدد باستمرار وبشكل مستمر أمام كل عملية قراءة وتأويل.

إن الصورة عند محمود درويش في خطابه الشعري المقاوم بمختلف أشكالها وتمظهراتها مستوحاة ومستمدة من صميم أرضه ومن علاقته بهذه الأرض، فمن خلال حالة الحب التي تربط الشاعر بوطنه؛ يغدو لمدركات العالم الحسية إمكانية أن تنقل لنا العوالم الشعورية المعقدة التي تجيش في نفس الشاعر، فيخلق من هذه المدركات الحسية صورا هي أدوات فاعلة في بنية خطابه الشعري المقاوم

خاتمة :

وفيما يلي جملة من النتائج التي قد خلصنا إليها في هذا البحث:

- يختلف خطاب المقاومة الشعري عن الخطاب المقاوم إذ يهيمن على الأول الحدث في مستواه الوقتي، أما الثاني فينتقل بالحدث من قيمته المحلية إلى قيمة الديمومة والخلود بفتحه إياه على كلية التجربة الإنسانية.
- يتحدد الخطاب الشعري المقاوم بمستوى عمقه الثقافي ورؤيته الإنسانية التي يطرحها.
- الخطاب الشعري المقاوم مبدأ حياتي قائم على تعشق الحرية ومقاومة مظاهر الظلم والاستبداد وإعادة إحياء الحلم والأمل في نفوس الناس.
- انتقل الإبداع مع محمود درويش من حلم الاستقرار في المكان إلى حلم الاستقرار في اللغة، ونقل فلسطين من حيزها المكاني المحدود إلى أفقها الإنساني الرحب بوصفها رمزا من رموز المقاومة الكونية.
- الخطاب الشعري المقاوم هو في أصله تجربة للحب تخصب الشعر ليكون مضمارا لحرية الشعوب وسندا في مقاومتها.
- الأرض في الخطاب الشعري المقاوم هي مصدر للحب والجمال وهي كذلك مكمن لابتعاث روح المقاومة.
- عبر الشاعر في صوره الحسية عن عالمه الشعوري باستثماره لمدركات العالم الحسية، فهو يفعل المحسوسات من عناصر الطبيعة في سياق مفاده التأكيد على ارتباطه بأرضه ووجوب مقاومة أعدائها.
- نحى الشاعر منحى الفناء عند الصوفيين إذ دلت الصورة الذهنية التي تطرقنا إليها بالتحليل في بعض قصائده على السكينة والحرية التي حققها والتي هي مطمح من مطامح الفعل المقاوِم الذي تمظهر في خطابه الشعري.

الخطاب الشعري المقاوم عند محمود درويش هو خطاب بث الأمل وروح الحلم وتذكير بالأحقية في الحياة الكريمة .

قائمة الإحالات :

1)أحمد موسى الخطيب ، وهج القصيد دراسات في الشعر العربي المقاوم ، عمادة البحث العلمي بجامعة البتراء ، الأردن ، ط 1 سنة 2009 صفحة 09.

2) موقع المعاني – معجم إلكتروني تاريخ الزيارة : 2022/10/15 سا 16:05 الرابط :

https://www.almaany.com/ar/dict/arar/%D9%82%D8%A7%D9%88%D9%85/

3) غالي شكري ، أدب المقاومة ، مجلة أدب ونقد ، عدد 10 ،دار المعارف ،القاهرة، 1985 م ،ص 134 .

4) كميل مقبل حمادة ، النص الشعري المقاوم المعاصر بين الشعرية والخطاب قراءة في قصيدة الإلياذة الجنوبية لموسى حمادة، رابط الموقع : https://www.awraqthaqafya.com/wp-content/uploads/2021/10/Cover.jpeg
تاريخ الزيارة 2022/10/20.سا 21:09

5)ينظر : فادية المليح حلواني ، تجليات ثقافة المقاومة في الشعر العربي المعاصر ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة خيضر بسكرة ، العدد الثامن سنة 2005 ، ص 214 .

6) المرجع نفسه ص 228.

7) ينظر أحمد موسى الخطيب ، مرجع سابق ص 55 .

8) ينظر ، المرجع نفسه ص 61 .

9) رائد وليد جرادات ، بنية الصورة الفنية في النص الشعري الحديث الحر ،نازك الملائكة أنموذجا ، مجلة جامعة دمشق سوريا ، المجلد 29 العدد 1 ، سنة 2013.

10) ينظر المرجع نفسه .

11) المرجع نفسه .

12) شيماء عثمان محمد ، الصورة الحسية في شعر فهد العسكر، مجلة أبحاث البصرة، العلوم الإنسانية ، مركز دراسات الخليج العربي ، البصرة العراق ، المجلد 36 ،العدد 1. 2011

13) محمود درويش ، الأعمال الجديدة الكاملة ، دار رياض الريس للكتب والنشر، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، سنة 2009، صفحة 24 .

14) المصدر نفسه ص 316 .

15) ينظر : غريب روز ، تمهيد في النقد الأدبي الحديث ، دار ديناميك غرافيك للطباعة ، بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، سنة 1971 ص 192.

16) رائد وليد جرادات ، بنية الصورة الفنية في النص الشعري مرجع سابق .

17)محمود درويش ، الأعمال الجديدة الكاملة ، ص 442 .

18)المصدر نفسه ص 343 .

19)المصدر نفسه ص 444 .

20) ينظر :ابتسام دهينة ، الصورة الشعرية من التشكيل الجمالي إلى جماليات التخييل ، مجلة كلية الآداب واللغات ، جامعة خيضر بسكرة الجزائر ، العدد العاشر والحادي عشر . 2012 .

21) ينظر إحسان عباس ، اتجاهات الشعر العربي المعاصر ، عالم المعرفة ، الكويت ، الطبعة الأولى سنة 1978 ، ص 165 .

22) محمود درويش، الأعمال الجديدة الكاملة ، ص 324 .

23)المصدر نفسه ص 324 .

24) المصدر ن ص 325 .